

﴿ذلك﴾ الوصف ﴿مثلهم﴾ أي: وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعاً ثم ابتداءً فقال ﴿كزرع﴾ يريدهم كزرع وقيل تم الكلام عند قوله ذلك مثلهم في التوراة، ثم ابتدئ ومثلهم في الإنجيل كزرع ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمّة أوضحت بقوله: ﴿كزرع أخرج شطاه﴾ كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾⁽⁴⁾، وقرئ الانجيل بفتح الهمزة ﴿شطاه﴾ فراخه يقال أشطأ الزرع إذا فرخ وقرئ شطاه بفتح الطاء وشطاه بتخفيف الهمزة وشطاه بالمدّ وشطه بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى ما فيها وشطوه بقلبها وأوًا ﴿فأزره﴾ من المؤازرة وهي المعاونة وعن الأخفش أنه أفعال وقرئ فأزره بالتخفيف والتشديد أي فشدّ أزره وقواه ومن جعل أزر أفعال فهو في معنى: القراءتين ﴿فاستغلظ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ ﴿فاستوى على سوقه﴾، فاستقام على قصبه جمع ساق وقيل مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم يبتون نبات الزرع يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر، وعن عكرمة أخرج شطاه بابي بكر فأزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم لأنّ النبي ﷺ قام وحده، ثم قواه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع.

فإن قلت: قوله ﴿ليغيب بهم الكفار﴾ تحليل لماذا قلت: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة ويجوز أن يعلل به ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ لأنّ الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك ومعنى ﴿منهم﴾ البيان كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾⁽⁵⁾ عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفتح فكانما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة»⁽⁶⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات مدنية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾

قدمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة من قدمه إذا تقدمت في قوله تعالى: يقدم قومه ونظيرهما معنى ونقلاً سلفه وأسلفه. وفي قوله تعالى: ﴿لا تقدموا﴾ من غير ذكر

المدح ﴿والذين معه﴾ أصحابه ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ جمع شديد ورحيم ونحوه أثلة على المؤمنين أئمة على الكافرين وأغلظ عليهم بالمؤمنين رؤف رحيم، وعن الحسن رضي الله عنه بلغ من تشددهم على الكفار وأنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من ترجمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء، وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله وكذلك التقبيل قال: لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه، ولا يده ولا شيئاً من جسده وقد رخص أبو يوسف في المعانقة من حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى، والمعونة والاحتمال والأخلاق السجيحة ووجه من قرأ أشداء ورحماء بالنصب أن يصبهما على المدح أو على الحال بالمقدر في معه ويجعل تراهم الخبر ﴿سيماهم﴾ علامتهم وقرئ سيماهم وفيها ثلاث لغات هاتان والسيما، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجادة من كثرة السجود وقوله تعالى ﴿من أثار السجود﴾ يفسرها أي: من التأثير الذي يؤثره السجود وكان كل من العليين علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملك يقال له نو الثغفات لأنّ كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثغفات البعير، وقرئ من أثار السجود ومن آثار السجود وكذا عن سعيد بن جبير هي السمة في الوجه.

فإن قلت: فقد جاء عن النبي ﷺ: «لا تعلبوا صوركم»⁽¹⁾. وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثار في وجهه السجود، فقال: إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تشن صورتك⁽²⁾ قلت: ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ونحن فيما حدث في جبهة السجادة الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله تعالى، وعن بعض المتقدمين كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحداً الآن يصلي فيرى بين عينيه ركة البعير فما ندري أثقلت الأروس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق وقيل هو صفرة الوجه من خشية الله، وعن الضحّاك ليس بالندب في الوجوه ولكنه سفرة وعن سعيد بن المسيب ندى الظهور وتراب الأرض، وعن عطاء رحمه الله استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل كقوله: من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار⁽³⁾

(1) لم يخرج الزليعي.

(2) أخرجه عبد الرزاق: 173/2، (الحديث رقم: 2941).

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في قيام الليل (الحديث رقم: 1333).

(4) سورة الحجر، الآية: 66.

(5) سورة الحج، الآية: 30.

(6) عزاه الزليعي لابن مردويه، وللواحد في تفسيره. زليعي 3/ 319.

أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ، وعن مسروق: دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه فقالت للجارية: اسقه عسلاً. فقلت: إني صائم. فقالت: قد نهى الله عن صوم هذا اليوم وفيه نزلت⁽⁴⁾. وعن الحسن أن أناساً ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا ذبحاً آخر⁽⁵⁾. وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله إلا أن تزول الشمس وعند الشافعي يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة. وعن الحسن أيضاً: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الأفاق فآكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدؤه بالمسألة حتى يكون هو المبتدئ. وعن قتادة نكر لنا أن نأسا كانوا يقولون لو أنزل فيه كذا لكان كذا فكره الله ذلك منهم وأنزلها. وقيل: هي عامة في كل قول وفعل، ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه بالجواب، وأن لا يمشي بين يديه إلا لحاجة، وأن يستأني في الافتتاح بالطعام ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقبكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه. فإن التقى حذر لا يشافه أمراً إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعه عليه فيه، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل: لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار فتنهأ أولاً عن عين ما قارفه، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو أمثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تعملون. وحق مثله أن يتقي ويراقب إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لثلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخنوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأذب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعضهم الجدوى في بينهم. وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يالو عملاً بما يحوده عليه وارتدأ عما يصده عنه وانتهأ إلى كل خير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٧﴾

والمراد بقوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث

مفعول وجهان: أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم، والثاني: أن لا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة، كأنه قيل: لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل. كقوله تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾⁽¹⁾ ويجوز أن يكون من قدم بمعنى تقدم كوجه وبين ومنه مقدمة الجيش خلاف ساقته وهي الجماعة المتقدمة منه. وتعضده قراءة من قرأ لا تقدموا بحذف إحدى تاءي تقدموا إلا أن الأول أملاً بالحسن وأوجه وأشد ملاءمة لبلاغة القرآن والعلماء له أقبل. وقرئ: لا تقيموا من القدوم أي: لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدمهما ولا تعجلوا عليهما⁽²⁾. حقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريباً منه، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً، ولجريها هكذا فائدة جلية ليست في الكلام العريان وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. والمعنى: أن لا تقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتدين برسول الله ﷺ. وعليه يدور تفسير ابن عباس رضي الله عنه وعن مجاهد لا تفتاترا على الله شيئاً حتى يقصه على لسان رسوله. ويجوز أن يجري مجرى قولك: سرني زيد وحسن حاله، وأعجبت بعمرو وكرمه، وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص. ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك. وفي هذا تمهيد توطئة لما نغم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته لأن من أحظه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي كان أنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ويخافت لديه بالكلام. وقيل: بعث رسول الله ﷺ إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلاً وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل إلا ثلاثة نفر نجوا، فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما وسلبوهما. ثم أتوا رسول الله ﷺ فقال: بثسما صنعتم كانا من سليم والسلب ما كسوتهما فوداهما رسول الله ﷺ⁽³⁾ ونزلت أي: لا تعملوا شيئاً من ذات

(1) سورة المؤمنون، الآية: 80. = المسامتين ليمين سيده ويساره ويوليه بده، ومعناه: أن لا تقدموا على أمر حتى يأذن الله ورسوله فيه، فتكونوا مقتدين فيما تاتون وتندون بكتاب الله وسنة نبيه.

(2) قال الزيلعي: غريب ورواه الثعلبي غير سند والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» الزيلعي 3/324.

(3) عبد الرزاق في تفسيره، الزيلعي 3/325.

(4) رواه الحاكم في المستدرک 2/462.

(1) سورة المؤمنون، الآية: 80.

(2) قال أحمد: يريد أنه لم يذكر المفعول الذي يتفاضه تقدموا بإطراح ذلك المفعول، كقوله: ﴿يحيي ويميت﴾ وحلى الكلام بمجاز التمثيل، في قوله: ﴿بين يدي الله ورسوله﴾ بفائدة ليست في الكلام العريان، وهو تصور الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، وجعل صورة ذلك المنهي عنه، مثل: أن يجلس العبد في الجهتين =

الأعلم الهنلي:

فرفعت عيني بالحجا وإلى أناس بالمناقب

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد تخيلاً أن يكون ما دون الشديد مسوغاً لهم، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون. وعن ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر وكان جهوري الصوت فكان إذا تكلم رفع صوته وربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته. وعن أنس أن هذه الآية لما نزلت فُقد ثابت، فتفقدته رسول الله ﷺ فأخبر بشأته فدعاه فسأله فقال: يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط. فقال له رسول الله ﷺ: «لست هناك إنك تعيش بخير، وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة». وأما ما يروى عن الحسن أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله ﷺ، فمحملة والخطاب للمؤمنين على أن ينهي المؤمنون ليندوح المنافقون تحت النهي ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظفروا قلة مبالاتهم فيقتدي بهم ضعفة المسلمين. وكاف التشبيه في محل النصب أي: لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيم بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبها «أن تحبط أعمالكم» منصوب الموضع على أنه مفعول له وفي متعلقه وجهان: أحدهما أن يتعلق بمعنى النهي فيكون المعنى انتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم: أي: لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف كقوله تعالى: «يبيِّن الله لكم أن تضلوا»⁽⁴⁾، والثاني: أن يتعلق بنفس للفعل ويكون المعنى أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط جعل كانه فعل لأجله⁽⁵⁾ وكانه العلة والسبب في إيجاده

يكون كلامه عاليًا لكلامكم وجهره باهراً لجهركم، حتى تكون مزيتة عليكم لائحة وسابقتة واضحة وامتيازته عن جمهوركم كشيء الأبلق غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغظكم وتبهروا منطقته بصخبكم، ويقول: «ولا تجهروا له بالقول» إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم وأن تتعمدا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر كما تكون مخاطبة المهيب المعظم عاملين بقوله عز اسمه وتعزروه وتوقروه، وقيل معنى: «ولا تجهروا له بالقول جهر بعضكم لبعض» لا تقولوا له يا محمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوة. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار وأخا السرار حتى ألقى الله⁽¹⁾. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يكلم النبي ﷺ كأخي السرار لا يسمعه حتى يستفهمه⁽²⁾. وكان أبو بكر إذا قدم على رسول الله ﷺ، وقد أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ⁽³⁾، وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منه وردّه إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب أو مجاملة معاند أو إرهاب عو أو ما أشبه ذلك. ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: أصرخ بالناس. وكان العباس أجهر الناس صوتاً. يروي أن غارة أتتهم يوماً فصاح العباس: يا صباحاه: فأسقطت الحوامل لشدة صوته وفيه يقول نابغة بني جعدة:

فزجرابي عروة والسباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم
زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق
مرارة السبع في جوفه، وفي قراءة ابن مسعود: لا ترفعوا
بأصواتكم، والباء مزيدة محنو بها حنو التشديد في قول

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ.

(2) قال الزليعي: غريب 327/3.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: ولا ترفعوا أصواتكم، (الحديث رقم: 4846).

(4) سورة النساء، الآية: 176.

(5) قال أحمد: هو يحوم على شرعة وبيئة، إياك ورودها، وذلك أنه يعتقد أن ما دون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود في العذاب المقيم وتخرج المؤمن من اسم الإيمان ورسمه، ومعاد الله من هذا المعتقد، فعليك بعقيدة أهل السنة للمهدة في =

= مواضع من هذا المجموع فجدد العهد بها، وهي اعتقاد أن المؤمن لا يخلد في النار، وأن الجنة له بوعد الله حتم ولو كانت خطاياها ما دون الشرك أو ما يؤدي إليه كزبد البحر، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك، والزمخشري اغتنم الفرصة في ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها، فيما يدعيه أن رفع الصوت بين يدي رسول الله ﷺ معصية لا تبلغ الشرك، وقد أخاف الله عباده من إحباطه الأعمال بها، ولو كان الإحباط مقطوعاً بنفيه لم تستقم الإخافة به، وأنى له أن يبلغ من ذلك أماله ونظم الكلام إياه عند البصر بمعناه، فنقول: المراد في الآية: النهي عن رفع الصوت على الإطلاق، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه السلام، =

احتمال مشاقها أو وضع الامتحان موضع المعرفة، لأنَّ تحقق الشيء باختباره كما يوضع الخبر موضعها فكانه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى وتكون اللام متعلقة بمحذوف، واللام هي التي في قولك أنت لهذا الآخر أي: كائن له ومختص به قال:

أنت لها أحمد من بين البشر أءاء من ليعملات على الوجى
وهي مع معمولها منصوبة على الحال، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى أي لتثبت وتظهر تقواها ويعلم أنهم متقون، لأنَّ حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها. رقىل: أخلصها للتقوى من قولهم: امتحن الذهب وفتنه إذا أذابه فخلص إيريزه من خبثه ونقاها. وعن عمر رضي الله عنه: اذهب الشهوات عنها والامتحان افتعال من محنه وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد. قال أبو عمرو: كل شيء جهته فقد محنته وأنشد:

أتت رذابا باديا كلالها قد محنت واضطربت أطالها

قيل: أنزلت في الشيخين رضي الله عنهما لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخص السرار. وهذه الآية بنظمها الذي رتب عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم أسماً لأنَّ المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتدال والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله ﷺ من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء.

والوراء الجهة التي يواربها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ومن لا ابتداء الغاية وأنَّ المناداة نشأت من ذلك المكان.

فإنَّ قُلْتُ⁽⁵⁾: فرق بين الكلامين بين ما ثبتت فيه وما

على سبيل التمثيل كقوله تعالى: ﴿ليكون لهم عوداً﴾⁽¹⁾.

فإنَّ قُلْتُ: لخص الفرق بين الوجهين! قُلْتُ: تلخيصه أن يقدر الفعل في الثاني مضموماً إليه المفعول له كأنهما شيء واحد ثم يصب النهي عليهما جميعاً صلباً. وفي الأوَّل يقدر النهي موجهاً على الفعل على حياله ثم يعلل له منهياً عنه.

فإنَّ قُلْتُ: بأي النهيين تعلق المفعول له؟ قُلْتُ: بالثاني عند البصريين مقدرًا إضماره عند الأوَّل كقوله تعالى: ﴿أتوني أفرغ عليه قطراً﴾⁽²⁾ وبالعكس عند الكوفيين، وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أنَّ الرفع والجهر كلاهما منصوب أدأزه إلى حيوط العمل، وقراءة ابن مسعود فتحبط أعمالكم أظهر نصاً بذلك لأنَّ ما بعد الفاء لا يكون إلا مسبباً عما قبله فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطغيان في قوله تعالى: ﴿فيحل عليكم غضبي﴾⁽³⁾ والحبوط من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفض بطونها وربما هلكت. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وإنَّ مما ينبت الربيع لما يقتل حبباً أو يلم ومن أخواته حبجت الإبل إذا أكلت العرفج فأصابها ذلك»⁽⁴⁾. وأحبط عمله مثل أحبطه، وحبط الجرح وحبج إذا غفر وهو نكسه وتراميه إلى الفساد جعل العمل السيء في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض لمن يصاب به أعاننا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال. وقد دلت الآية على أمرين هائلين أحدهما: أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام وما يحبط عمله، والثاني أن في آثامه ما لا يدري أنه محبط. ولعله عند الله كذلك فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشى في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ.

إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَمْرَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿امتنح الله قلوبهم للتقوى﴾ من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ودرب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وإنَّ عنه. والمعنى أنهم صبر على التقوى أتوياء على

= مقدمتين كلاتهما صحيحة، إحداهما: أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإذناء، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن، حتى إنَّ الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه، فكيف برتبة النبوة وما يستحقه من الإجلال والإعظام، المقدمة الأخرى، أنَّ إذناء النبي ﷺ كفر، وهذا أمر ثابت قد نص عليه ائمتنا، وافتوا بقتل من تعرض لذلك ككراً، ولا تقبل توبته، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر، والله العوفق.

- (1) سورة القصص، الآية: 8.
- (2) سورة الكهف، الآية: 96.
- (3) سورة طه، الآية: 81.
- (4) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهد الدنيا (الحديث رقم: 121 - 1052).
- (5) قال أحمد: ولقد اغتر بعضهم في تبيك بني تميم، بما لا تساعده عليه الآية، فإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له، وقد

= والقاعدة المختارة أن إيداءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق، فورد النهي عما هو مظنة لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أو لا، حماية للذريعة وحسماً للمادة، ثم لما كان هذا المنهي عنه وهو رفع الصوت منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر، لزم المكلف أن يفت عن ذلك مطلقاً، وخوف أن يقع فيها هو محبط للعمل، وهو البالغ حدَّ الإذناء، إذ لا دليل ظاهر يبيده وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر، وقعت الإشارة بقوله: ﴿إنَّ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله: ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ موقع إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً فيكون ككراً محبطاً قطعاً، وبين أن يكون غير مؤذٍ فيكون كبيرة محببة على رآيه قطعاً، فعلى كلا حاله الإحباط به سحقت، إذا فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أنَّ الإحباط ثابت مطلقاً والله أعلم. وهذا التقرير الذي نكرته يدور على

تعجر فهم وسوء ألبهم وهلم جرا من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية. فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أرفف تلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كأن الأوّل بساط للثاني ووطء لذكركه، ثم نكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم من الصباح برسول الله ﷺ في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدرًا، لينبه على فطاعة من أجروا إليه وجسروا عليه. لأن من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغًا. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب كما يحكى عن أبي عبيد ومكانه من العلم والزهدي وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال: ما دقت بابًا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿٥﴾

﴿أنهم صبروا﴾ في موضع الرفع على الفاعلية لأن المعنى ولو ثبت صبرهم والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾ (2) وقولهم: صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس وهو حبس فيه شدّة ومشقة على المحبوس. فلهاذا قيل للحبس على اليمين أو القتل صبر، وفي كلام بعضهم الصبر مرًا لا يتجرّعه إلا حرًا.

فإن قُلْتُ: هل من فرق بين ﴿حتى تخرج﴾ وإلى أن تخرج؟ قُلْتُ: إن حتى مختصة بالغاية المضروبة. تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفها أو صدرها لم يجز. وإلى عامّة في كل غاية فقد أفادت حتى بوضعها أنّ خروج رسول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم فما كان لهم أن يقطعوا أمرًا دون الانتهاء إليه.

فإن قُلْتُ: فاي فائدة في قوله: ﴿إليهم﴾؟ قُلْتُ: فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولاجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم ﴿لكان خيرًا لهم﴾ في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمّر بعد لو وإما ضمير مصدر صبروا كقولهم: من كذب كان شرًا له ﴿والله غفور رحيم﴾ بليغ الغفران والرحمة وأسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنبأوا. بعث رسول الله ﷺ الوليد بن

تسقط عنه! قُلْتُ: الفرق بينهما أنّ المنادي والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الراء، وفي الثاني لا يجوز لأنّ الراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية ولا يجمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد. والذي يقول ناداني فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار ولا دبرها، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقًا بغير تعيين واختصاص. والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها، وإنما أنكر عليهم أنهم نالوه من البر والخارج مناداة الأجلاف لبعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة نون جهة. والحجرة الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة وهي فعلة بمعنى مفعولة كالغرفة والقبضة وجمعها الحجرات بضمّتين والحجرات بفتح الجيم والحجرات بتسكينها وقرئ: بهنّ جميعًا. والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة، ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات متطلبين له فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوا حجرة حجرة فنادوه من ورائها، وأنهم نالوه من وراء الحجرة التي كان فيها ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ ولمكان حرمة، والفعل وإن كان مسندًا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم وكان الباكون راضين فكانهم تولوه جميعًا. فقد ذكر الأصم أنّ الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة، ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدًا إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم. ودوي أن وقد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد فجعلوا ينادونه: يا محمد أخرج إلينا، فاستيقظ فخرج ونزلت. وسئل رسول الله ﷺ عنهم فقال: «هم جفاة بني تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالًا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم» (1) فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفّه والجهل لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقبله مع بعض نسائه، ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم، ومنها التعريف باللام دون الإضافة، ومنها أن شفع نهم باستجفانهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات تهوينًا للخاطب على رسول الله ﷺ وتسليّة له وإماطة لما تداخله من إيحاش

= الكتب الصحاح.

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول، أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطوي (الحديث رقم: 198 - 252).

(2) سورة الكهف، الآية: 28.

= سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال: «هم جفاة بني تميم»، وعلى الجملة: «ولا ترز وأزره وزر أخرى» فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوق في حق أمة عظيمة؛ لأنّ واحدًا منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء، فقد ورد أنّ المنادي له عليه السلام هو الأقرع، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه

بجهالة ﴿حال كقوله تعالى: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم﴾⁽³⁾ يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. والإصباح بمعنى الصيرورة. والندم ضرب من الغم وهو أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحة لها دوام ولزام لأنه كلما تذكر المتنم عليه راجعه من الندام وهو لزام الشريب ودوام صحبته، ومن مقلوباته أدمن الأمر أدامه ومدن بالمكان أقام به ومنه المدينة، وقد تراهم يجعلون لهم صاحباً ونجباً وسميراً وضجياً وموصوفاً بأنه لا يفارق صاحبه.

الجملة المصدرية بلولا تكون كلاماً مستأنفاً لادائه إلى تنافر النظم⁽⁴⁾ ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع أو البارز المجرور، وكلاهما مذهب سديد. والمعنى أن فيكم رسول الله ﷺ على حالة يجب عليكم تغييرها أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها، وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعين لكم من رأي واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتثيه المحتذى على أمثله. ولو فعل ذلك ﴿لعنتم﴾ أي: لوقعتم في العنت والهلاك، يقال: فلان يتعنت فلاناً أي: يطلب ما يؤديه إلى الهلاك، وقد أعنت العظم إذا هيض بعد الجبر، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وإن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم، وإن بعضهم كانوا يتصونون ويزعمهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك وهم الذين استثناهم بقوله تعالى: ﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان﴾ أي: إلى بعضكم ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة التي لا يظن لها إلا الخواص، وعن بعض المفسرين: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقوله: ﴿أولئك هم الراشدون﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ أي: أولئك المستثنون هم الراشدون بصدق ما قلته.

فإن قلنت: ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها؟ قلنت: القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لأرائهم فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه.

عقبة أخوا عثمان لأمه وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً ثم قال: «هل أزيكم». فعزله عثمان مصدقاً إلى بني المصطلق وكانت بينه وبينهم إحنة فلما شارف بيارهم ركبوا مستقبلين له فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة: فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوه، فبلغ القوم فوروا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم فقال: لتنهن أو لابعثن إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم، ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه. وقيل: بعث إليه خالد بن الوليد فوجدهم منابئين بالصلاة متجهدين فسلموا إليه الصدقات فرجع⁽¹⁾. وفي تنكير الفاسق والنبا شياع في الفساق والإنباء كانه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبا⁽²⁾ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق لأن من لا يتحاشى جنس الفسوق لا يتحاشى الكذب الذي هو نوع منه والخسوق الخروج من الشيء والانسلاخ منه، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها ومن مقلوبه فقسفت البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها، ومن مقلوبه أيضاً فقسفت الشيء إذا أخرجته عن يد مالكة مغتصباً له عليه، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق. قال رؤبة:

فواسقاً عن قصدها جوائز

وقرأ ابن مسعود: فتثبتوا، والتثبت والتبين متقاربان وهما طلب الثبات والبيان والتعريف، ولما كان رسول الله ﷺ والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة. قيل: إن جاءكم بحرف الشك وفيه أن على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة لئلا يطعم فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور.

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكَ نَارِقٌ يَلِيكَ فَيَبْئُرُونَ أَن يُصِيبُوا قَوْمًا يَحْتَسِبُونَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا فَتَنَنَّا نَذِيرِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ فِيكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَسِمْنَهُ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾

﴿أن تصيبوا﴾ مفعول له أي كراهة إصابتكم ﴿قوماً﴾

== سعد بن أبي وقاص أحد الصحابة، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات، فمنها: مطالبتهم النبي ﷺ باتباع آرائهم التي من جملتها: تصديق الوليد في الإيقاع ببني المصطلق، فإذا ضمنت هذه النبتة التي نكرها إرسالاً إلى ما علمت من معتقده، تبين لك من حاله أعني الزمخشري ما لا أطيق التصريح به، لأنه لم يصرح، وإنما سلطنا معه سبيل الإنصاف، وبجدة الانتصاف نص بنص وتلويح بتلويح، فنسأل الله العظيم بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين أن يرضى عن صحابه أجمعين وعنا بهم آمين.

(1) قال أحمد: تسامح بلفظ الشياخ، والمراد الشمول؛ لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم، كما إذا وقعت في سياق النفي والله أعلم.
(2) أخرجه ابن جرير وعبد الرزاق في تفسيره، نكره في كتاب: الدر المنثور، أخرج الزيلعي 3/332.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 25.
(4) قال أحمد: من جملة هنات المعتزلة تلبيهم على عثمان رضي الله عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قتلته، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه ما أورده الزمخشري في هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعلة الشنعاء عوضاً عن =

والشجاعة والعدل والعفة وما يتشعب منها ويرجع إليها. وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاء وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطاً ومخالفة عن المعقول. و ﴿الكفر﴾ تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالوجود و ﴿الفسوق﴾ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكبائر. و ﴿والعصيان﴾ ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع. والعرق العاصي العائد، واعتصت النواة اشتدت، والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخر. قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة. وأنشد:

وغير مقلد وموشمات صلين الضوء من صم الرشاد
فَصَلَا مِنْ اللَّهِ وَرَيْعَةً وَاللَّهُ عَيْدُهُ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَفَعَلْنَا
أَلَيْ تَبَى حَتَّى تَوَجَّحَ إِلَيْهِ أَمْرُ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ
وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾.

و ﴿فضلاً﴾ مفعول له أو مصدر من غير فعله.

فإن قُلْتُ: من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد (2) فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتخذ الفاعل؟ قُلْتُ: لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب. عن الراشدون ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى والجملة التي هي أولئك هم الراشدون اعتراض أو عن فعل مقدر كأنه قيل: جرى ذلك أو

فإن قُلْتُ: فلم قيل يطيعكم دون أطاعكم؟ قُلْتُ: للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه وأنه كلما عن لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه ببليق قوله: في كثير من الأمر كقولك: فلان يقري الضيف ويحامي الحريم. تريد أنه مما اعتاده ووجد منه مستمراً.

فإن قُلْتُ: كيف موقع لكن وشريطتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نغياً وإثباتاً! قُلْتُ: هي مفقودة من حيث اللفظ حاصلة من حيث المعنى، لأن الذين حَبِبَ إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم فوقعن لكن في حاق موقعها من الاستدراك. ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق (1) وسبيله الكناية كما سبق، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغيبى عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يثنى عليهم بفعل الله، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ويحبون أن يحملوا بما لم يفعلوا.

فإن قُلْتُ: فإن العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه وذلك فعل الله، وهو مدح مقبول عند الناس غير مربود! قُلْتُ: الذي سَوَّع ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء ووسامة المنظر في الغالب يسفر عن مخبر مرضي وأخلاق محمودة. ومن ثم قالوا أحسن ما في الدميم وجهه، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ولكن لدلالته على غيره. على أن من محققه الثقات وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به وقصر المدح على النعت بأشهاد الخير وهي الفصاحة

= وهذه النبهة كفاية إن شاء الله تعالى.

(2) قال أحمد: أورد الإشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده، ونحن بنينا على ما بيننا أن الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له وهو اتحاد فاعل الفعلين، على أن الإشكال وارد نصاً على تقريرنا على غير الحد الذي أورده عليه الزمخشري، بل من جهة أن الله تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم ومما يعيدونه أن الفاعل من نسب إليه الفعل، وسواء كان حقيقة أو مجازاً حتى يكون زيد فاعلاً وانقض الحائط وأشباهه، كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد، وإذا تقرر وروده على هذا الوجه، فلك في الجواب عنه طريقان، إما جواب الزمخشري، وإما أنكم منه وأبين وهو أن الرشد هنا يستلزم كونه راشداً إذ هو مطارعه، لأن الله تعالى أرشدهم فرشدوا وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة، وهو عكس قوله: ﴿يريك البرق خوفاً وطمعا﴾ فإن الإشكال بعينه وارد فيها، إذ الخوف والطمع فعلهم، أي: منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون والفعل الأول لله تعالى؛ لأنه مريهم ذلك والجواب عنه أنهم مفعولون في معنى الفاعلين بواسطة استلزام المطارعة؛ لأنه إذا أرهم فقد رأوا وقد سلف هذا الجواب مكانه، فصححت الكلام ههنا بتقدير المفعول فاعلاً، وعكسه آية الحجرات إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولاً، وهذا من دقائق العربية، فتامله والله الموفق.

(1) قال أحمد: تلجج والحق أبلج، وزاغ والسبيل منهج، وقاس الخلق بالواحد الحق وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر اغتراراً بحال اعتقد اطراده في الشاهد، وهو أن الإنسان لا يمدح بفعل غيره، وقاس الغائب على الشاهد تحكماً وتغلغل باتباع هوى معجماً، فجرحه ذلك بل جرحه على تأويل الآية وإبطال ما تكرته من نسبة تحبيب الإيمان إلى الله تعالى على حقيقته، وجعله مجازاً؛ لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الإيمان مضافاً إلى الله تعالى، والعبد إذا ممدوح بما ليس من فعله وهذا عنده محال، فأتبع الآية رأيه الفاسد فإذا عرضت عليه الألة العقلية على الوجدانية والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء، وطولب بإبقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل والنقل، فإنه يتمسك في تأويلها بالبحال المنكورة في التحكم بقياس الغائب على الشاهد مما له إيداء إلى تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالذي نعتده ثبثنا الله على الحق أن الله تعالى منح ومدح وأعطى وامتن، فلا موجود إلا الله صفاته وأفعاله، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلاً لبعده، فسمى المحل فاعلاً والحال فعلاً، فهذا هو التوحيد الذي لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد، ولا بد أن أطارحه القول، فائقول: أخبرني عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم، هل يكتسب أم بغير مكتسب؟ فلا يسع أن يقول، إلا أنه أثنى عليهم بما لم يكتسبه بل بما وهبه إياهم فأنه يهوه، وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أثنى عليهم بكتسب لهم من رسالة أو نبوة فقد خرج عن أهل الملة وانحرف عن أهل القبلة، =

وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلتهما، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكلتاها عند أنفسهما محقة. فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة، وإطلاعهما على مرشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملتا على شاكله ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوح لهما فقد لحتتا بالفتنيتين الباغيتين، وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل، وفي ذلك تفاصيل إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنت بعد الفئمة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله. فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت، وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنه عند الجميع فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى: **﴿فأصلحوا بينهما بالعدل﴾** على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد والذي نكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد بون ضمان الجنائيات ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط.

فإن قلّت: لم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأول؟ **قلّت:** لأن المراد بالافتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معاً أو راكبتي شبهة. وأيتهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين وتسكين الدهماء بإراءة الحق والمواظب الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرتا، فحينئذ تجب المقاتلة وأما الضمان فلا يتجه وليس كذلك إذا بغت إحداهما فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين **﴿واقسطوا﴾** أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين، والقول فيه مثله في الأمر باتقاء الله على عقب النهي عن التقديم بين يديه، والقسط بالفتح الجور من القسط وهو اعوجاج في الرجلين، وعود قاسط يابس، وأقسطته الرياح. وأما القسط بمعنى العدل فالفعل منه أقسط وهمزته للسلب أي: أزال القسط وهو الجور.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٤﴾

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاققة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين

كان ذلك فضلاً من الله، وأما كونه مصدرًا من غير فعله فإن يوضع موضع رشدًا لأنّ رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام **﴿وإله عليم﴾** بأحوال المؤمنين وما بينهم التمايز والتفاضل **﴿حكيم﴾** حين يفضل ويعم بالتوفيق على أفاضلهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وقف رسول الله ﷺ على مجلس الأنصار وهو على حمار، فبال الحمار فأمسك عبد الله بن أبي بنه وقال: خل سبيل حمارك فقد أذانا نتنه. فقال عبد الله بن رواحة: والله إن بول حماره لأطيب من مسكك»⁽¹⁾. وروي: «حماره أفضل منك، وبول حماره أطيب من مسكك»⁽²⁾. ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتى استبأ وتجالدوا، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج فتجالدوا بالعصي، وقيل بالأيدي والنعال والسعف. فرجع إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم ونزلت. وعن مقاتل: قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغي الاستطالة والظلم وإبء الصلح، والفيء الرجوع وقد سمي به الظل والغنيمة، لأنّ الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين. وعن أبي عمرو: حتى نفي بغير همز ووجهه أن أبا عمر خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلسة فظنه قد طرحها.

فإن قلّت: ما وجه قوله: **﴿اقتتلوا﴾**، والقياس اقتتلنا⁽³⁾؟ كما قرأ ابن أبي عبيدة، أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين! **قلّت:** هو مما حمل على المعنى دون اللفظ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله حتى يفيثوا إلى أمر الله، فإن فإوا فخذوا بينهم بالقسط وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر: ما وجبت في نفسي من شيء ما وجبته من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل. قاله بعد أن اعتزل، فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت، وإذا تولت عمل بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيؤاها»⁽⁴⁾. ولا تخلو الفتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويشمر المكافة والمواذعة، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: في الإصلاح بين الناس (الحديث رقم: 2691)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (الحديث رقم: 1799 - 1797).

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(3) رواه ابن أبي شيبة 389/8 في كتاب: الأدب، باب: النهي عن الوقعة. ورواه الحاكم في المستدرک 155/2.

(4) قال أحمد: قد تقدم في مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ من بعد الحمل على معناها، وفي هذه الآية حمل على المعنى بقوله: =

أقوم آل حصن أم نساء

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفرقيين ولكن قصد نكر الذكور وترك نكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن، وتكثير القوم والنساء يحتمل معنيين أن يراد لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات⁽⁴⁾ من بعض، وأن تقصد إفادة الشياخ وأن تصير كل جماعة منهم منهيّة عن السخرية. وإنما لم يقل: رجل من رجل ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلاماً⁽⁵⁾ بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسايتهم على السخرية واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله: ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر. وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيه ويضحك به فيؤدي ذلك وإن أوجده واحد إلى تكثير السخرية وانقلاب الواحد جماعة وقوماً. وقوله تعالى: ﴿عسى أن يكونوا خيرًا منهم﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه⁽⁶⁾، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرًا من الساخر؛ لأنّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب وعلمهم من ذلك بمعزل فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتمه عينه إذا رأى رثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبق في محادثته، فقلعه أخلص ضميرًا واتقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله. ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: «لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا فضحكت منه، خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه». وعن عبد الله بن مسعود «البلاء موكل بالقول: ولو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبًا»⁽⁷⁾ وفي قراءة عبد الله: عسوا أن يكونوا، وعسين أن يكن. فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى: ﴿فهل عسيتم﴾ وعلى الأولى التي لا خير لها كقوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا﴾، واللمز الطعن والضرب باللسان. وقرئ: ولا تلمزوا بالضم والمعنى: وخصوا أيها

أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتفاخر عن غايتها. ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد لزم السائر أن يتناهما في رفعه وإزاحتها، ويركبوا الصعب والنلوم مشيًا بالصلح وبثا للسفراء بينهما إلى أن يصابف ما وهي من الوفاق من يرقعه وما استثنى من الوصال من بيته، فالأخوة في الدين أحق بذلك وبأشد منه، وعن النبي ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره. ثم قال: احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل»⁽¹⁾.

فإن قلّت: فلم خص الاثنان بالذكر دون الجمع؟ قلّت: لأنّ أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان فإذا لزم المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر الزم، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين. وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج. وقرئ: بين إخوانكم وإخوانكم والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة وأنهم خلص لذلك متمحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسوموه. ﴿ولتقوا الله﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه. وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم واشتمال رافته عليكم حقيقاً بأن تعقدوا به رجاءكم.

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءَ مِنْ سَاءَ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّغْوِ بَيْنَ أَنْفُسِكُمْ بَدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

القوم الرجال خاصة لأنهم القوام بأمر النساء. قال الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾⁽²⁾ قال عليه الصلاة والسلام: «النساء لحم على وضم إلا ما نب عنه»⁽³⁾. والذابون هم الرجال، وهو في الأصل جمع قائم كصوم وزور في جمع صائم وزائر، أو تسمية بالمصدر عن بعض العرب إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً وأبغضت قومًا أي: قيامًا. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية وفي قول زهير:

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغالمة، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (الحديث رقم: 2442)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره... (الحديث رقم: 2564 - 32).

(2) سورة النساء، الآية: 34.

(3) قال الزليعي غريب مرفوعاً، ورواه موقرفاً ابن المبارك على عمر بن الخطاب وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث زليعي 3/ 337.

(4) قال أحمد: ولو عرف فقال: لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض=

= لكانت كل جماعة منهم منهيّة ضرورية شمول النهي، ولكن أورد الزمخشري هذا، وإنما أراد أن في التنكير فائدة أن كل جماعة منهيّة على التفصيل في الجماعات، والتعرض بالنهي لكل جماعة على الخصوص، ومع التعريف تحصيل النهي، لكن لا على التفصيل بل على الشمول، والنهي على التفصيل أبلغ وأوقع.

(5) قال أحمد: وهو في غاية الحسن لا مزيد عليه.

(6) قال أحمد وهو من الطراز الأول.

(7) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 8/ 390 في كتاب: الأدب في النهي عن الوقية.

النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها رسول الله ﷺ: هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد⁽³⁾ وروي أنها «نزلت في ثابت بن قيس وكان به فقر وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ⁽⁴⁾ ليسمع. فأتى يوماً وهو يقول: تفسحوا لي حتى أنتهي إلى رسول الله ﷺ فقال الرجل: تنح، فلم يفعل. فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: بل أنت ابن فلانة، يريد ما كان يعيرها في الجاهلية، فحجل الرجل فنزلت. فقال ثابت: لا أفر على أحد في الحسب بعدها أبداً» ﴿الاسم﴾ ههنا بمعنى الذكر من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كما يقال: طار ثناؤه وصيته وحقيقته ما سما من نكره وارتفع بين الناس. ألا ترى إلى قولهم: أشاد بذكره كأنه قيل: بشئ الذكر المرتفع للمؤمنين⁽⁵⁾ بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكرها بالفسق. وفي قوله: ﴿بعد الإيمان﴾ ثلاثة أوجه: أحدهما استنقاج الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي ياباه الإيمان ويحظره كما تقول: بشئ الشأن بعد الكبرية الصبوة، والثاني أنه كان في شائهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي يا فاسق، فنهوا عنه. وقيل لهم: بشئ الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه. والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التباير، والثالث أن يجعل من فسق غير مؤمن كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة: بثئت الحرفة الفلاحة بعد التجارة.

يقال: جنبه الشر إذا أبعد عنه، وحقيقته جعله منه في جانب فيعدي إلى مفعولين. قال الله عز وجل: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾⁽⁶⁾ ثم يقال في مطاوعه: اجتنب الشر فتتنقص المطاوعة مفعولاً والمأمور باجتنابه هو بعض الظن. وذلك البعض موصوف بالكثرة ألا ترى إلى قوله:

يَأْتِيَا إِلَيْنِ مَأْمُورًا حَتْبُوا كَيْدًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّكَ بِعَصِ الظَّنِّ إِنَّهُ وَلَا يَحْسَبُونَ وَلَا يَحْتَسِبُ بِمَعْنَى أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مِمَّا فَرَغْتُمْهُ وَقَالَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ نَزَّابٌ رَجِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿إِنَّ بعض الظن إثم﴾. فإن قُلْتَ: بين الفصل بين كثير حيث جاء نكرة، وبينه لو جاء معرفة؟ قُلْتَ: مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية، وإن في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تعيين لذلك ولا تعيين، لثلا يجترئ أحد

المؤمنون أنفسهم بالانتهاه عن عيبها والظعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم. ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «انكروا الفاجر بما فيه كي يحذر الناس»⁽¹⁾. وعن الحسن رضي الله عنه في نكر الحجاج: أخرج إلي بنائاً قصيرة فلما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله ثم جعل يططبب شعيرات له ويقول: يا أبا سعيد، يا أبا سعيد، وقال لما مات: اللهم أنت أمته، فاقطع سنته، فإنه أتانا أخيفش أعيمش يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي. فوفاً الله وتحتة مائة ألف أو يزيدون لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل، الصلاة أيها الرجل. هيئات دون نكك السيف والسوط، وقيل: معناه لا يجب بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكاننا عاب نفسه. وقيل: معناه لا تغفلوا ما تلمزون به لأن من فعل ما استحق به المزم فقد لمز نفسه حقيقة. والتنازب بالألقاب التداعي بها، فتفاعل من نزهه وبنو فلان يتنازبون ويتنازبون، ويقال: النبز والنزب لقب السوء والتلقيب المنهي عنه. وهو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيراً به وذمماً له وشيئاً، فاما ما يحبه مما يزيه وينوه به فلا بأس به. روي عن النبي ﷺ: «من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه»⁽²⁾ ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: شيعوا الكنى فإنها منبهة. ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير. روي عن الضحاک أن قوماً من بني تميم استهزؤا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبي نر وسالم مولى حذيفة فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة. وعن ابن عباس أن أم سلمة ربطت حقوبها بسببية، وسدلت طرفها خلفها وكانت تجرّه. فقالت عائشة لحفصة: انظري ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب. وعن أنس: عيرت نساء رسول الله ﷺ أم سلمة بالقصر. وعن عكرمة عن ابن عباس: «أن صفية بنت حيي أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن

= هو أولها، ولكن بعد صرف الذم إلى نفس الفسق وهو مستقيم؛ لأن الاسم هو السمي، ولكن الزمخشري لم يستطع ذلك انحرافاً إلى قاعدة يصرف الذم إلى ارتفاع نكر الفسق من المؤمن، تحوماً على أن الاسم التسمية، ولا شك أن صرف الذم إلى نفس الفسق أولى، وأما الوجه الثاني: فأدخله ليتم له حمل الاسم على التسمية صريحاً، وأما الثالث: فليتم له أن الفاسق غير مؤمن، وكلا القاعدتين مخالف للسنّة فأحذرهما، وبالله التوفيق. ولقد كشف الله لي عن مقاصده حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة، إلا إذا أدركها الحق فكلمها، والله الحمد.

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: الستر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9667).
(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في مقاربة وموادة أهل الدين (الحديث رقم: 8772).
(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (الحديث رقم: 7211)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل أزواج النبي ﷺ (الحديث رقم: 3892).
(4) قال الزيلعي غريب 3/342 وذكره الواحد في أسباب النزول ص 221.
(5) قال أحمد: أقرب الوجوه الثلاثة ملائمة لقاعدة أهل السنة وأولاهما = (6) سورة إبراهيم، الآية: 35.

فقال: «أن تذكر أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبهته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»⁽⁶⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس «أيحب أحدكم» تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أقطع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحيين لا يجب ذلك، ومنها إن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب يأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان آخاً، ومنها إن لم يقتصر على أكل لحم الآخ حتى جعل ميتاً، وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفةً مودودةً أن تأكل منها، كذلك فإكره لحم أخيك وهو حي، وانتصب «ميتاً» على الحال من اللحم، ويجوز أن ينتصب عن الآخ وقرئ: ميتاً، ولما قرره عز وجل بأن أحداً منهم لا يجب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى: «فكرهتموه» معناه فقد كرهتموه واستقر ذلك وفيه معنى الشرط أي: إن صح هذا فإقرار عليكم وهي إلقاء الفضيحة أي: فتحقق بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإبائه البشرية عليكم أن تجسده كراهتكم له وتقدركم منه. فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والظعن في أعراض المسلمين، وقرئ: فكرهتموه أي: جبلتم على كراهته.

فإن قُلْتَ: هلا عدى بإلى كما عدى في قوله: وكرهه إليكم الكفر وأيهما القياس! قُلْتَ: القياس تعديه بنفسه لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيب حشوه تقول: كرهت الشيء فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول، وأما تعديه بإلى فتأول وإجراء لكره مجرى بغض لأن بغض منقول من بغض إليه الشيء فهو بغض إليه كقولك: حب إليه الشيء فهو حبيب إليه. والمبالغة في الثواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه ما من ننب يقترفه المقترف إلا كان مغفواً عنه بالتوبة، أو لأنه بليغ في قبول التوبة منزل صاحبها منزلة من لم يندب قط لسعة كرمه. والمعنى واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين الثائبين. وعن ابن عباس «أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوي لهما طعامهما فنام عن شأنه يوماً فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغى لهما إداماً وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان بذلك.

على ظنٍ إلا بعد نظر وتامل وتمييز بين حقه وباطله بأمانة بيئة مع استسعار للتقوى والحذر ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظن منوطاً بما يكثر منه دون ما يقل، ويجب أن يكون كل ظن متصف بالكثرة مجتنباً وما اتصف منه بالقلّة مرخصاً في تظننه، والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أن كل ما لم تعرف له أمانةً صحيحةً وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه السر والصلاح وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهره الناس يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء»⁽¹⁾. وعن الحسن: كنا في زمان الظنّ بالناس حرام، وأنت اليوم في زمان اعلم واسكت وظنّ بالناس ما شئت. وعنه: لا حرمة لفاجر. وعنه أن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتك الله، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب. وقد روي: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»⁽²⁾. والإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ومنه قيل لعاقبته، الأثم فعال منه كالتكالم والعذاب والوبال قال:

لقد فعلت هذي النوى بي فعلة أصاب النوى قبل الممات أثارها والهمزة فيه عن الواو كأنه يثم الأعمال أي: يكسرهما بإحباطه. وقرئ: «ولا تحسسوا» بالحاء والمعنيان متقاربان. يقال: تحسس الأمر إذا طلبه ويحث عنه تفعل من الجنس كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس، لما في اللمس من الطلب. وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى: «وإنا لمسنا السماء»⁽³⁾ والتحسس التعرف من الحس ولتقاربهما قيل: لمشاعر الإنسان: الحواس بالحاء والجيم، والمراد النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعابهم والاستكشاف عما ستروه. وعن مجاهد: خنوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله. وعن النبي ﷺ «أنه خطب فرقع صوته حتى أسمع العوايق في خبورهن قال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»⁽⁴⁾. وعن زيد بن وهب: قلنا لابن مسعود هل لك في الوليد بن عقبة بن أبي معيط تقطر لحيته خمراً. فقال ابن مسعود: «إنا قد نهينا عن التجسس فإن ظهر لنا شيء أخذنا به»⁽⁵⁾. غابه واغتابه كغاله واغتاله، والغيبة من الاغتياب كالغيلة من الاغتيال وهي نكر السوء في الغيبة. سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفسق، باب: حرمة أم المؤمنين وماله (الحديث رقم: 3932).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الستر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9664).

(3) سورة الجن، الآية: 8.

(4) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، باب: الغيبة (الحديث رقم: 5763)، وأخرجه الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في تعظيم المؤمن (الحديث رقم: 2032)، وأخرجه أبو داود في كتاب:

(5) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الغيبة (الحديث رقم: 2589).

(6) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفسق، باب: حرمة أم المؤمنين وماله (الحديث رقم: 3932).

فجاءه وهو في ذمائه فتولى غسله ودفنه⁽⁴⁾. فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم فنزلت.

﴿قَاتِلِ الْأَعْرَابَ مِمَّا قُلَّ لَمْ تُؤْمِرُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسَلْنَا وَمَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

الإيمان هو التصديق مع الثقة وطمانينة النفس، والإسلام الدخول في السلم والخروج من أن يكون حربياً للمؤمنين بإظهار الشهادتين الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ فاعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطاة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب باللسان فهو إيمان.

فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. أو قل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم قلتم⁽⁵⁾: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً ودفن ما انتحلوه، فقيل: قل لم تؤمنوا وروعي في هذا النوع من التكذيب أنب حسن حين لم يصرح بلفظه فلم يقل: كذبتم ووضع لم تؤمنوا الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين: أولئك هم الصابقون. تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح. واستغنى بالجملة التي هي لم تؤمنوا عن أن يقال: لا تقولوا: آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم: آمنا كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم، وهو غير معتد به.

فإن قلت: قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ بعد قوله تعالى: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة! قلت: ليس كذلك فإن فائدة قوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ هو تكذيب دعواهم وقوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه كأنه قيل لهم ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطاة قلوبكم لآلسنتكم لانه كلام واقع موقع الحال من الضمير في قولوا،

فبعد ذلك قالوا لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما فقالا: ما تناولنا لحمًا. فقال: إنكما قد اغتبتما⁽¹⁾. فنزلت.

يَتَابُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٤٧﴾

﴿من نكر وانثى﴾ من آدم وحواء وقيل: خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فما منكم أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب. والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمام، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفضائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ العباس فصيلة وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها. وقري: لتتعارفوا ولتعارفوا بالإدغام ولتعرفوا أي: لتعلموا كيف تتناسبون ولتتعرفوا. والمعنى أن الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض فلا يعتزى إلى غير أبائه، لا أن تتفاخروا بالأبواء والأجداد وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال: ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ وقري: أن بالفتح كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأن أكرمكم عند الله اتقاكم لا أنسبكم، وعن النبي ﷺ أنه طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس إنما الناس رجلان، مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. ثم قرأ الآية⁽²⁾ وعنه عليه السلام: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله»⁽³⁾. وعن ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وعن يزيد بن شجرة: «مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ، فاشتراه رجل، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كل صلاة، ففقده يوماً، فسأل عنه صاحبه، فقال: محموم، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال: هو لما به.

(1) قال الزيلعي: غريب وبمعناه ما رواه أبو القاسم الأصبهاني في كتاب: الترغيب والترهيب، وذكره الثعلبي ثم البخوي بلفظ مصنف من غير سند 349/3.

(2) أخرجه الترمذي في السنن كتاب: التفسير، باب: ومن سورة الحجرات (الحديث رقم: 3270) وأخرجه أبو داود عن أبي هريرة في كتاب: الألب، باب: في التفاخر بالأحساب (الحديث رقم: 5116).

(3) رواه الحاكم في المستدرک 270/4.

(4) ذكر الواحدي في أسباب النزول ص 222.

(5) قال أحمد: ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة، قوله تعالى: =

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ ثم قال: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ ولما كان مؤدى هذا تكذيب الله تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي ﷺ، قدم على ذلك مقدمة تلخص المقصود وتخلصه من حواش الوهم ونواشيه، فقال بين الكلامين: ﴿والله يعلم إنك لرسول﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما دعوه من شهادة قلوبهم بالحق؛ لأن ذلك حقيقة الشهادة لا أنهم كذبوا في أن رسول الله ﷺ رسول من الله، وكان المخلص من ذلك قوله جلّ وعلا: ﴿والله يعلم إنك لرسول﴾

ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجد وثبات.

قُلْ أُمِّلُونِ اللَّهُ يَبِيضِكُمْ وَاللَّهُ يَمْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَىٰ عِبْدِهِ ﴿١٧﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾

يقال: ما علمت بقدمك أي: ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ وفيه تجهيل لهم. يقال: منَّ عليه بيد أسداها إليه كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه، واشتقاقها من المن الذي هو القطع، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير من غير أن يعمد لطلب مثوبة، ثم يقال: منَّ عليه صنعه إذا اعتده عليه منة وإنعامًا، وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة وذلك أنَّ الكائن من الأعراب قد سماه الله إسلامًا ونفى أن يكون كما زعموا إيمانًا. فلما منوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام: إن هؤلاء يعتنون عليك بما ليس جديرًا بالاعتداد به من حيثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام. فقل لهم: لا تعتنوا علي إسلامكم أي: حديثكم المسمى إسلامًا عندي لا إيمانًا. ثم قال: بل الله يعتد عليكم أن أمدمك بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له إن صحَّ زعمكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف ما لا يخفي على المتأمل وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان. فله المنة عليكم. وقرئ: إن هداكم بكسر الهمزة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: إذ هداكم.

إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٠﴾

وقرئ: ﴿تعملون﴾ بالتاء والياء وهذا بيان لكونهم غير صالحين في دعواهم. يعني:

أنه عزَّ وجل يعلم كل مستتر في العالم، ويبصر كل عمل تعملونه في سرهم وعلانيتكم لا يخفى عليه منه شيء. فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم وذلك أنَّ حاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه»⁽²⁾.

وما في لما من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿لا يلتكم﴾ لا ينقصكم ولا يظلمكم. يقال: ألتته السلطان حقه أشدَّ الألت، وهي لغة غطفان ولغة أسد وأهل الحجاز لاته ليتا، وحكى الأصمعي عن أم هشام السلوية أنها قالت: الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات، وقرئ: باللغتين لا يلتكم ولا يالتكم ونحوه في المعنى فلا تظلم نفس شيئًا. ومعنى طاعة الله ورسوله أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق، ويعقدوا قلوبهم على الإيمان، ويعملوا بمقتضياته، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم ووهب لهم مغفرته وأنعم عليهم بجزيل ثوابه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ نفرًا من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادة وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلو أسعارها وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجنتك بالأنفال والذراري، يريون الصدقة ويمنون عليه فنزلت.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَخَلَعُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٢١﴾

ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لمن صدقوه واعترفوا بأن الحق منه.

فإن قلت: ما معنى ثم ههنا وهي للتراخي وعدم الارتباب يجب أن يكون مقارنًا للإيمان لأنه وصف فيه لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمانينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب! قلت: الجواب على طريقتين: أحدهما أنَّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد تلج الصدر، فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظرًا غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك راكبًا رأسه لا يطلب له مخرجًا. فوصف المؤمنون حقًا بالبعد عن هذه الموبقات وتظيره قوله: ﴿ثم استقاموا﴾⁽¹⁾ والثاني أنَّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيهًا على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارًا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضًا جديداً. ﴿وجاهدوا﴾ يجوز أن يكون المجاهد منويًا وهو العدو المحارب أو الشيطان أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس الغزو وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال نحو ما صنع عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى ﴿أولئك هم الصادقون﴾ الذين صدقوا في قولهم أمنا

(1) سورة فصلت، الآية: 30.

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحد في التفسير والزيلعي /3